

حيث التوحيد ليس قصداً دون إعلان، فليكن الإعلان بدلالته توحيداً كما يعتقد من يعلن بكلام أو كتب أو إشارة أم ماذا.

﴿تَحْنُ أَعْمُرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

نجوى شيطانية تهدم صرح الرسالة الإلهية على حد تصميمهم، فهم يستمعون إلى الرسول ﷺ ليعلموا ما يقول، ولكي يكيدوا له كيداً، ثم يستمعون بكيد عليه فيما بينهم كشورى إبليسية ليتسقط فيها عن كيان الوحي، ثم يتناجون في حُصالة الشورى الظالمة: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾^(١).

هذه من الهرطقات الهراء حيث يهرفون عليه بما يخرفون: إنه ساحرٌ أو مسحور، كاهن أو مجنونٌ أو شاعر نتربص به ريب المنون أم ماذا؟.

(١) في الدر المنثور ٤: ١٨٧ - أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال: حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمد قال: والله سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثنا على الركب وكنا كفرس رهان قالوا من نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه فقام عنه الأخنس وتركه.

ومن أخطر ما يفترى به عليه أنه مسحور أم به جنّة، مسحورٌ مسلوب الاختيار في بعض ما يفعل أو يقول حيث يسيطر الشيطان على عقليته أم إحساسه، فليس ما يفعل أو يقول - على خرافته - منه، وإنما من شيطان أو جن، خرافة مزدوجة بعيدة عن الحق في بعدين! أم إذا لم تكن خرافة فليست هي لا منه ولا من ربه وإنما من ساحر يسحره حيث يتسخره! والنجوى مصدر كالتقوى، وقد وُصفوا بالمصدر لما في هذه الصفة من المبالغة في ذكر ما هم عليه من كثرة تناجيهم وإسرار المكائد بينهم، والصفة بالمصادر تدل على قوة الشيء الموصوف بذلك، فهم لكثرة تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول والفرية عليه أصبحوا كأنهم هم نجوى في مقاتلهم الظالمة:

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ (١) (٢).

لقد كانت فطرة الفحص والتفتيش تدفعهم إلى استماع الرسول فيما يقول، ثم النخوة والكبرياء تزجهم إلى سجن ما يستمعون به تلاوماً فيما بينهم، ثم إلى جحيم القولة الفاتكة الهاتكة، إذ هم نجوى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

لقد ضربوا له الأمثال البعيدة عن الحق حيث اخذتهم جنّتهم فاتخذوا قولتهم جنّتهم، فقد تأثروا بالقرآن حين سمّعوا إليه، فلا سبيل لهم أن يقولوا إنه «قول بشر» لأنهم يلمسون منه وحيّاً ليس من بشر، حيث لا يشبه قول بشر: ولا تدعهم نخوتهم أن يقولوا إنه كلام الله جرى على لسان بشر، فقالوا: إن هذا إلا سحرٌ يؤثر، فظنوا تسمية القرآن سحراً أبطل وحيه ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾!

لو كانت هذه الرسالة السامية مختلقة لاستطاعوا سبيلاً إليها قضاء

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) راجع ج ٣٠ من الفرقان.

عليها، فإذا لم يستطيعوا إليها سبيلاً ولن، فهي إلهية مهما ضربوا لها الأمثال المضلة، فإنهم تائهون ضالون في هذه البغية الباغية، لا يتعبون إلا أنفسهم.

إنما تُضرب الأمثال لإقامة حق مبين تقريباً لبيانه، أو لإمطة باطل مبين تقريباً لبطلانه، وأما أن تضرب الأمثال دون أي برهان، أم تضرب لإبطال حق واضح البرهان فهو ضلال مبين.

وهؤلاء المناكيد الأوغاد بدل أن يبرهنوا دعواهم إبطالاً للرسالة المحمدية ولن، أخذوا يضربون الأمثال يُمنه ويسرة بكل تكلف وعسرة دون أن يستطيعوا سبيلاً إلى إبطال هذه الرسالة السامية.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفُنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

إنه لا برهان لناكري المعاد الحساب إلا استبعادات واهية، لا تملك من حجية إلهيه: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفُنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ فإذا بليت أجسادنا في ﴿كُنَّا عِظْمًا﴾ ورمدت عظامنا فكنا «رفاتاً» فلم يبق منا شيء إلا تبدلت إلى تراب «أنا» ونحن تراب ﴿لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟

هم يستبعدون أن يتحول التراب المرتخي عظاماً ولحوماً، والله يحولهم ويبدلهم خلقاً جديداً ولو كانوا حجارة أو حديداً ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فالحجارة أصعب تحولاً إلى الخلق الجديد من التراب والحديد أصعب من الحجارة، وخلق يكبر في صدورهم أصعب من الحجارة، والحديد أصعب منهما، فليكونوا أي صلب وصعب مما سبقت له الحياة أم لم تسبق، فتبديلها إلى خلق جديد ليس من المستحيل لا ذاتياً ولا في الحكمة ولا أمام القدرة الإلهية.

ثم استبعاد ثان على فرض الإمكان ﴿فَسَيَقُولُونَ مِنْ يُعِيدُنَا﴾ إلى ما كنا، من يردنا إلى الحياة بعدما كنا عظاماً ورفاتاً أم حجارة أو حديداً أم ماذا؟ مما هو أشد إيغالاً في الموت والخمود، ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لا تذهبوا بعيداً نظرة الجواب، فالذي فطركم أول مرة هو الذي يعيدكم مرة أخرى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

هؤلاء المناكيد الأوغاد يعجبون من عودهم وهم عارفون بداهم: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَكُنْ لَافِي خَلْقٍ حَدِيدًا...﴾ (١) ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٢) ﴿أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٣) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ﴾ (٤) (٢).

﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ليست إلا تحدياً عليهم، لا أمراً أن يكونوا حجارة أو حديداً، إذ هم لا يستطيعون لأنفسهم تكوناً هكذا، ولا أن الله يريد تكوينهم هكذا، فلا يعني من «كونوا...» إلا أولوية في هذه الكينونة وتلك استبعاداً على حدّ زعمهم أن يبعثوا خلقاً جديداً: إلا أن الكينونات كيفما كانت ليست لتتمنع من أمر الله أن تبعث خلقاً جديداً، فلا فرق بين عظام الإنسان ورفاته، وبين حجارتة وحديده وفولاذه وأصلب منه في بعثه خلقاً جديداً، حيث الكلُّ من خلق الله، يخلقها ويبعثها كما يشاء، ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالحجارة والحديد على كونهما أبعد عن الحياة من العظام والرفات هي قريبة إلى الحياة في قدرة خالق الحياة.

هؤلاء الأوغاد بعدما يسمعون جواباً تلو جواب عما يستبعدون من خلقهم الجديد يتعنتون في سؤال «متى هو»؟ كأن لتعيين متاه ومُداه دخلاً في أصله، فلو لم يعلم الرسول متاه، أو بعد مداه فلا يُبعثون إذاً خلقاً جديداً،

(١) سورة الرعد، الآية: ٥.

(٢) سورة ق، الآيات: ٢ - ٤.

فجاء الجواب حاسماً ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وترجى القرب لصاحب الوحي هو قربه: قرباً في متاه كما هو قريب في العقل والعلم وفي العدل.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

وذلك اليوم القيامة بعد لبث البرزخ، ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ نكران للبث قليل كما كانوا يظنون ﴿... لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾^(١): أو ﴿... لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾^(٢) أو ﴿... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾^(٣) ^(٤).

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾:

إن الشيطان من جن وإنسان ينزغ بين الإخوة المتحابين فضلاً عن سائر الناس أم الذين بينهم عداً، فلا يهدف في محاولاته بين الناس إلا عداً وزيادة.

والنزغ دخول في أمر لإفساده كما دخل الشيطان بين يوسف وإخوته: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٥).

فقد يدخل الشيطان في أمر جماعة متحابين فيفسد بينهم من جانب دون أن يسطع لإفساد من جانب آخر، كما بين يوسف وإخوته، فهم الذين حاسدوه وفعلوا به ما افتعلوه، وهو لم يفعل بهم إلا حسناً، أو يفسد من الجانبين إن كانا على سواء، أو يدخل في أمر شخص فيفسد بينه وبين نفسه،

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٩.

(٣) سورة طه، الآية: ١٠٣.

(٤) راجع ج ٣٠ من الفرقان.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

وهذه فعلة دائبة منه على غير المخلصين، أم لا يسطع مهما حاول كما في المخلصين، وإن كان عليهم أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الدِّينَ أَتَقَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾^(٢) .

ولكي نستأصل نزغات الشيطان ونزعاته، علينا استئصال الوسائل التي ينزغ بها الشيطان بيننا، من قوله سوء تلدغ، أو إجابة سوء وجاه سوء، فإنهما مريض الشيطان ومنزغه، وإنما القول الأحسن، لكيلا يبقى مجال لنزغ الشيطان، وكذلك الفعل الأحسن أم أي مظهر من المظاهر الحسنى^(٣) .

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ هنا يؤمر أول العابدين أن يقول لسائر العباد ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فالكلمة الحسنى هي لزوم العبودية وسياج على الشيطان دون نزغه: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٤) فالكلمة الحسنة تدفع العداوة، والكلمة الخسنة تدفع إلى العداوة، حيث الحسنة تأسوا جراح القلوب وتندي جفافها، ف﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٥) بداية وإجابة، ولتكن الإجابة أحسن ﴿وَإِذَا حُجِّمْتُمْ بِنُحْيَةٍ فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٦) .

فمن قال لك حسناً فلتجب حسناً أو أحسن، ومن قال لك سوءاً فلتجب

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٢٠٠-٢٠٢.

(٣) الدر المثور ٤: ١٨٨ - أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من نار.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٦.

حسناً أو أحسن، ولكي يترك السوء أو يميل إلى الحسنى وأما إذا قابلت السوء بالحسن فاستمر هو في الإساءة، وتجراً عليك وعلى سواك فيما السكوت بعد أو ﴿وَجَزَّوْا سِنْتَهُ سِنْتَهُ مِثْلَهَا﴾^(١) دون زيادة، ولكنما الضابطة العامة أن ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ صدأً لنزغ الشيطان، وأما إذا كان الحسن أو الأحسن مجالاً لنزغ الشيطان فلا، فإن قول التي هي أحسن ليس إلا صدأً لنزغ الشيطان، وتودداً إلى عباد الرحمن فإذا سبب لنزغ أكثر فلا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

من القول السوء أن تجابه السوء بمثله من السوء، وهو وإن كان حسناً ف «جزاء سيئة مثلها» ولكنما الأحسن أن تعفو مصلحاً ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢) إلا أن يتجرأ على سوءه أو يزداد.

ومن السوء المجابهة بالأسوأ وليس حسناً على أية حال فإنه اعتداءً بزيادة ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

ومنه الإخبار عن حاله الحاضرة أو المستقبلية أنه في سوء أم إلى سوءٍ دونما ظاهرة تدل، وعله في خير أم إلى خير ف ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ منكم وممن سواكم، يعلم حاضرهم ومستقبلهم وغابركم ف ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ﴾ إن أنتم من أهلها و ﴿إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ﴾ إن أنتم من أهلها ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾^(٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أن تجعلهم من أهل الرحمة أو ترحمهم، فما عليك إلا البلاغ.

(١ - ٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

فلا توكل على من سوى الله إلا على الله لا سواه، ولا وكيل على عباد الله إلا الله لا سواه، فهو الذي يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم مصاير عبادته وكل أمورهم بداية وحتى النهاية، لا فحسب بل: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويعلمه يفضل بعضاً على بعض ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ في درجاتهم وآياتهم المعجزات وفي كتاباتهم ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ فهو أفضل الكتب السماوية بعد الخمسة لأولي العزم.

يأتي ذكر الزبور هنا وفي النساء (١٦٣) والأنبياء (١٠٥)^(١) ولا يأتي ذكر من سائر الكتب الفروع للأنبياء، ولا من الأصول إلا الأربعة^(٢) نصاً وكتاب نوح تلويحاً، وقد يذكر الزبور نصاً مع التلويح إلى سائر الوحي بما فيه الوحي إلى نوح وإبراهيم وعيسى ﷺ كما في النساء، ويبشرنا البشارة العظمى بورثة الأرض نقلاً عن الزبور بعد الذكر في الأنبياء، ومن ثم نرى هنا في مقام تفضيل بعض النبيين على بعض يأتي بنموذج من تلك النماذج السامية:

- (١) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]
- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].
- (٢) نور الثقلين ٣: ١٧٥ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى عبد الله بن صالح عن أبيه عن آبائه عن علي بن أبي طالب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا أكرم مني، قال علي ﷺ: فقلت يا رسول الله ﷺ أفأنت أفضل أم جبرائيل؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياء المرسلين على ملائكته المقربين وفضلني على جميع النبيين والمرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من ولدك فإن الملائكة لخدامنا وخدام محبيننا.
- وفيه (٢٥٧) في الخرايج والجرايح بإسناده إلى أبي عبد الله ﷺ قال: إن الله فضل أولي العزم من الرسل على الأنبياء بالعلم وفضلنا عليهم في فضلهم وعلم رسول الله ﷺ ما لا يعلمون وعلمنا علم رسول الله ﷺ فروينا لشيعتنا فمن قبله منهم فهو أفضلهم وأينما نكون فشيعتنا معنا.

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾:

أفلا يدل هذا المثلث البارع من ذكرى الزبور على أهمية كبرى له بين الزبر؟ ترى أنه مفضل على سائر الزبر الفروع، فلماذا يفضل أحياناً على بعض الأصول؟ أقول: علّه لأنه الحفيظ على ما حُرّف من الكتب الأصول، ولحد الآن لا نجد فيه تحريفاً ولا تجديفاً إلا القليل القليل، بين الكثير الكثير من التحريف والتجديف الذي حصل في سائر الكتب المقدسة من العهد العتيق والجديد، مع ما يحوي من المعارف الجمّة الإلهية بألطف تعبير وأعطفه ما يأخذ بأزمة القلوب.

فالزبور إذاً مهيمن على ما حُرّف من الكتب الأصول، وسياج صارم ضد كل تحريف وتجديف على الكتب الأصول، يشتمل على جملة المعارف التي شمله الكتب المقدسة، متحلاً عن كل دسّ وتحريف أو مسّ وتهريف.

لا نجد بين الكتب المقدسة ما يقل فيه التحريف أم ليس فيه كما نجد في الزبور من كتب العهد العتيق وفي إنجيل القديس برنابا الحوارى من كتب العهد الجديد، وهما يشهدان دون تكلف ببراءة الوحي القرآني وبراعته، وبرأته عن كل دسّ، وأنه كتاب الوحي الأخير، مهما كانت سائر الكتب المقدسة على تحرفها تأتي شاهدة على ذلك بتكلف أحياناً ودون تكلف أخرى.

داود الملك النبي لا يُذكر في مقام تفضيله إلا كتابه الذي يمثل رسالته الروحية، حيث السلطة الزمنية ليست فضيلة في ذاتها، وإنما هي فضيلة في معطياتها أن كانت ذريعة للدعوة إلى الله وتطبيق شرعة الله وعلى حد تعبير الإمام علي عليه السلام حين يتحدّث عن نعله المخصوف الذي كان رقعاً كله: «والله لهي أحب إلي من إمرتك هذه إلا أن أقيم به حقاً أو أبطل باطلاً»!

أولو العزم من الرسل فضّلوا على من سواهم، كما فضل البعض من أولياء على بعض، والبعض من هؤلاء على بعض، وقد فضل محمد صلى الله عليه وآله على كافة النبيين وعلى الخلق أجمعين.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا
تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ
قَرِيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا
كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَآئِنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ
بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا الرِّيَآءَ الَّتِي آرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ
وَنُحُوفِهِمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لَادَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ
هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً
مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْبِكَ
وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ
إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ
وَكَيْلًا ﴿٦٥﴾﴾